الفصل التاسع

مجلس القردة

أول ما فعله الدكتور دوليتل عندما نهض من نومه هو أن أعلن أنه مضطر إلى المغادرة، فقال: «علي أن أعود إلى بودلبي. لقد طال غيابي.»

دهشت جميع حيوانات الأدغال من سماع هذا، فقد حسبوا جميعًا أن الطبيب سيمكث معهم إلى الأبد، فاجتمعت القردة مساء ذلك اليوم لمناقشة الأمر.

نهض زعيم قردة الشمبانزي أولًا وقال: «لماذا سيغادر؟ أليس سعيدًا معنا؟»

فنهض كبير قردة الغوريلا وقال: «أعتقد أن علينا أن نطلب منه البقاء، لعله يمكث إن بنينا له منزلًا أكبر وفراشًا مريحًا.»

ونهض تشي تشي ليتحدث، فتهامست سائر القردة وقالت فيما بينها: «صه! تشي تشي سيتحدث.»

قال تشي تشي: «أيها الأصدقاء، يؤسفني أن طلب البقاء من الطبيب لن يجدي نفعًا؛ فلديه الكثير من الواجبات في بودلبي، وثمة حيوانات أخرى تنتظره هناك، ولا بد أن قلق حصانه قد اشتد بحلول هذا الوقت، وقد خلف هناك أصدقاء، كما تلطف صياد بإقراضه قاربًا تحطم على بعض الصخور، وعلى الدكتور دوليتل أن يجد بديلًا له. ليس من العدل أن يبقى هنا.»

صمتت القردة بعض الوقت، وجلست على الأرض تفكر بعمق، وفي آخر الأمر نهض أحد قرود البابون قائلًا: «أظن أن علينا ألا نترك هذا الرجل الطيب يغادر دون إهدائه شيئًا. يجب أن نفكر في هدية رائعة لشكره على كل مجهوده، فعليه أن يعلم مدى امتناننا له.»

نهض قرد أحمر صغير يجلس في مؤخرة الحشد وقال: «أؤيد هذا! علينا أن نجد له أفضل هدية.»

فصاح قرد آخر: «علينا أن نعطيه حقيبة ممتلئة بجوز الهند!»

وقال آخر: «لنعطه مائة حزمة من الموز.»

فهز تشي تشي رأسه نفيًا وقال: «هذه أفكار رائعة، لكن حمل هذه الهدايا إلى بودلبي سيكون ثقيلًا، كما أنها على الأرجح ستفسد قبل أن يُؤكل نصفها.»

فقال القرد الأحمر الصغير: «وجدتها! عرفت بالتحديد ما الذي علينا أن نهديه إياه. علينا أن نهديه ظبي بوشميبوليو.»

فقال تشي تشي: «هذه فكرة رائعة! لم ير أحد قط في بودلبي ناقة بوشمبوليو. رائع!»

الفصل العاشر

الحيوان الأندر على الإطلاق

ظباء البوشميبوليو هي حيوانات منقرضة؛ لم يعد لها وجود في أي مكان على وجه الأرض. لكن أدغال أفريقيا في عهد الدكتور دوليتل احتضنت عددًا قليلًا منها، غير أنها كانت شديدة الندرة، حتى في هذا العهد.

لم يكن لظباء البوشميبوليو ذيل، بل رأس في المقدمة وآخر في المؤخرة. ويبرز من كل رأس قرن حاد. وهي حيوانات شديدة الخجل، يصعب بشدة الإمساك بها، ولا يمكنك الاقتراب منها خلسة، فبإمكانها دائمًا أن تراك وأنت تقترب. وكل من رأسيها ينام في وقت مختلف عن الرأس الآخر؛ لذا لم يقتنص قط أي من هذه الحيوانات. حاول الكثير من الصيادين هذا سنوات، لكن لم يفلح أي منهم.

لذا سعت القردة إلى العثور على أحدها. وفي نقطة على بعد عدة أميال بجوف الأدغال، لمح أحدهم آثار حوافر غريبة حديثة، فأدركوا أن أحد ظباء البوشميبوليو بالجوار.

ساروا على ضفة النهر متتبعين أثر الحوافر، ولاحظوا مكانًا ينمو فيه العشب الطويل بغزارة. كان هذا هو المخبأ النموذجي لظباء البوشميبوليو.

تضافرت القردة وصنعت دائرة كبيرة حول تلك المنطقة الممتلئة بالعشب، فسمعها الظبي وحاول الفرار، لكنه لم يستطع أن يفلت من الدائرة التي صنعها القرود. ولما لم يجد جدوى من الفرار، جلس لينتظر ما الذي سيحدث بعد.

قال كبير قردة الغوريلا: «نود أن نطلب منك معروفًا. هلا ذهبت إلى بودلبي مع الدكتور دوليتل؟ نحن نشعر بالامتنان له لكل ما فعله من أجلنا، ونود أن نعطيه شيئًا مميزًا.»

قال الظبي: «قطعًا لا. لن أفعل هذا قط!»

أوضحت له القردة أنه لن يودع حديقة حيوانات، وإنما سيحيا مع الدكتور دوليتل في منزله حياة رائعة.

هز البوشميبوليو رأسه نفيًا وقال: «لا. أنتم تعلمون كم أنا خجول. سأكره التحديق بي.»

فحاولت القردة إقناعه بأنه سيتمتع بالحياة مع الطبيب الطيب.

استغرق الأمر بعض الوقت ليوافق البوشميبوليو على لقاء الدكتور دوليتل، فإن أعجبه الطبيب، فسيفكر في الذهاب معه.

عاد البوشميبوليو والقردة إلى كوخ الطبيب المصنوع من العشب وطرقوا بابه. كانت البطة داب داب تجهز صندوق أغراض الطبيب، فالتفتت إلى الباب وقالت: «ادخل.»

فأدخل تشي تشي البوشميبوليو شاعرًا بالفخر الشديد.

صاح الدكتور دوليتل في دهشة: «عجبًا! ما هذا بحق السماء؟»

وقالت داب داب: «يا إلهي!» ونظرت إلى الظبي العجيب الذي تبرز من مقدمة جسده رأس ومن مؤخرته رأس أخرى، وقالت: «وا دهشتاه! كيف يحسم أمره؟»

قال تشي تشي: «هذا ظبي البوشمبوليو. إنه الحيوان الأندر في أدغال أفريقيا، وهو الحيوان الوحيد في العالم الذي يمتلك رأسين. إن صحبته معك إلى منزلك، فستحل جميع مشاكلك المالية، إذ سيدفع الناس أي قدر من المال لرؤيته.»

فقال الدكتور دوليتل: «ولكنني لا أريد أي مال.»

قالت داب داب: «بل تريد. دائمًا تنسى أننا بحاجة إلى المال لنعيش.»

سأل جيب: «ألا تذكر أننا اضطررنا إلى الاقتصاد والادخار؟ وأيضًا اقترضنا قارب الصياد، وقد دمر. كيف سنسدد ما ندين له به إن لم تكن معنا أي نقود.»

فقال الدكتور دوليتل بحرج: «كنت سأبني له قاربًا.»

فصاحت داب داب: «آه! تعقل! أنت لست نجارًا ولم تبن قط شيئًا من الخشب. لن يكون لديك أدنى فكرة عن كيفية صنعه. تشي تشي محق. نحن بحاجة إلى اصطحاب هذا المخلوق العجيب معنا.»

فتمتم الطبيب قائلًا: «أتفَهَّمُ رأيك، لكنني لا أرى أن الظبي سيجد هذا لطيفًا. أكره أن يغادر هذا المكان الجميل ليصبح مخلوقًا للعرض. لا يبدو هذا عدلًا، لكن هل سيود — أنا آسف، لقد نسيت اسمه — الذهاب معنا إلى بودلبي؟»

عندئذ قال البوشميبوليو: «نعم سأذهب معكم.» فقد فطن على الفور إلى أن الدكتور دوليتل يمكن الثقة به، ثم أردف قائلًا: «لقد كنت جم اللطف مع الحيوانات هنا، والقردة تخبرني بأنني الحيوان الوحيد الذي سيفي بحاجتك، لكن عليك أن تعدني بشيء واحد.»

قال الدكتور دوليتل: «لك هذا بالطبع. أعدك بما تشاء.»

قال البوشميبوليو: «عليك أن تعد بأنك ستعيدني إلى هنا إن لم تعجبني الحياة في أرضك.»

قال الدكتور دوليتل: «لك هذا بالطبع، لكن — لا تؤاخذني — هل لي أن أسألك سؤالًا؟»

قال البوشميبوليو: «تفضل.»

فأخذ الدكتور دوليتل كتابه من جيبه وأخذ يدون بعض الملاحظات، ثم قال: «لاحظت أنك تتحدث بفم واحد فقط، فهل تستطيع أن تتحدث بالفم الآخر.»

أجاب البوشميبوليو: «بالطبع، لكنني أحب أن أترك الفم الآخر لتناول الطعام، بذا أستطيع أن أتحدث وأنا آكل دون أن يبدو هذا فظًّا.»

ولما انتهى حزم الحقائب، أعدت لهم القردة حفلًا أتت إليه جميع حيوانات الغابة، وتناولت فيه ثمار الأناناس والمانجو والعسل. كان بالحفل كل ما طاب من الطعام والشراب.

ونهض الطبيب وألقى خطابًا قال فيه:

> «أصدقائي. لم أُجِد قط إلقاء الخطابات، لكنني سأحاول هذا. كنت أتمنى أن يُتاح لي المكوث بينكم لكن لدي الكثير من الواجبات في موطني. ومع أن ظروفًا بائسة هي التي دعتني إلى القدوم إلى هنا، إلا أنني سعيد بأنني قَدِمت وقدَّمت المساعدة.»

فهللت جميع الحيوانات وحيت الطبيب الطيب.

وتابع الطبيب كلامه قائلًا: «رجاء تذكروا ألا تتركوا الذباب يقف على الطعام قبل أن تأكلوه، ولا تناموا على الأرض عند هطول المطر.» وتوقف الطبيب لحظة ثم تابع كلامه قائلًا: «وآمل بصدق أن تعيشوا جميعًا حياة سعيدة إلى الأبد.»

دحرج كبير قردة الغوريلا حجرًا كبيرًا ووضعه بجانب باب كوخ الدكتور دوليتل، ثم قال: «هذا الحجر تذكار للمكان الذي أقام فيه الدكتور دوليتل. الطبيب العظيم الذي قطع مسافة طويلة لينقذ قردة أدغال أفريقيا.»

وهللت الحيوانات مجددًا ودمعت عينا الطبيب؛ إذ كان هذا عرفانًا هائلًا بفضله. وستجد الحجر لا يزال قائمًا إلى اليوم إن قصدت أدغال أفريقيا.

بعدما انتهى الحفل اتجه الطبيب وحيواناته إلى الشاطئ، وصحبتهم جميع القرود إلى أطراف أرضهم حاملين صندوق أغراض الطبيب وحقائبه لوداعه هو وحيواناته.

الفصل الحادي عشر

قصة الأمير

توقف الطبيب وحيواناته لوداع الحيوانات الأخرى عند ضفاف النهر وقتًا طويلًا؛ إذ أرادت جميع القرود أن تصافح يد الدكتور دوليتل.

قالت بولينيزيا فيما بعد والطبيب وحيواناته يسيرون وحدهم: «علينا بالحذر. سنمر بأرض الملك ثانية، وأنا واثقة من أنه لا يزال غاضبًا منا، فقد احتلنا عليه حيلة رهيبة.»

قال الدكتور دوليتل: «أجل، لكن كيف سنحصل على قارب آخر نصل به إلى بودلبي؟ أجد هذا مقلقًا. لا أدري إن كان الحظ سيحالفنا فنجد من يتمتع بكرم صديقنا الصياد في بودلبي.»

استغرقت العودة سيرًا عدة أيام. وفي أحد الأيام أثناء مرور الطبيب والحيوانات بنقطة كثيفة النباتات من الأدغال، تقدم تشي تشي سائر المجموعة بحثًا عن جوز الهند، لكن للأسف أثناء غيابه ضل الطبيب والحيوانات الأخرى طريقهم، فجابوا الأدغال كثيرًا لكنهم لم يعثروا على الطريق إلى الشاطئ.

انزعج تشي تشي عندما أدرك أن أصدقاءه قد ضلوا طريقهم، فتسلق الأشجار إلى ارتفاع كبير لتتاح له الرؤية على نحو أفضل، وبحث عن قبعة الطبيب العالية، لكنه لم يجدها، فصاح ولوح بيديه، وصفق، لكن بلا جدوى. وبدا وكأن الطبيب والحيوانات الأخرى قد تبخروا!

كان الطبيب والحيوانات الأخرى قد ضلوا طريقهم بالفعل، وشردوا في طريق العودة وسط الأدغال التي تنمو فيها الشجيرات والنباتات المتسلقة بكثافة إلى حد تتعذر معه الحركة بينها، فاستخدم الدكتور دوليتل سكينًا ليشق له هو والحيوانات طريقًا بين أغصان الأشجار، لكنهم تعثروا وسقطوا في مناطق ذات أرض موحلة، وأصابتهم أشواك النباتات بخدوش. وبدا أن معاناتهم لن تنتهي، وأنهم لن يهتدوا إلى طريق العودة.

لكنهم بعد ساعات من التجوال في الأدغال، عثروا مصادفة على حديقة الملك الخلفية، فهرع رجال الملك إليهم على الفور وألقوا القبض عليهم.

لكن بولينيزيا — التي كانت دائمًا سريعة البديهة — طارت بعيدًا بين قمم الأشجار قبل أن يبصرها رجال الملك، فيما اقتيد الطبيب وسائر الحيوانات إلى الملك.

قال الملك عندما رآهم: «آه. إذن فقد أُلقي القبض عليكم مجددًا، لكنكم لن تفروا هذه المرة. هذا الطبيب الذي يحسب نفسه شديد الدهاء سيمضي بقية حياته في مسح أرض مطبخي. أيها الحراس! خذوهم إلى السجن.»

اقتيد الطبيب وحيواناته مجددًا إلى الزنزانة الصغيرة التي زجوا بها من قبل وجميعهم في غاية الاضطراب.

قال الدكتور دوليتل: «كم هذا مؤسف! علي أن أعود إلى بودلبي؛ سيحسب الصياد أنني قد سرقت القارب، ولا بد أن الحيوانات بحاجة إلى من يرعاها الآن.»

كانت بولينيزيا طوال هذا الوقت تجلس على شجرة طويلة، وفيما كانت تتطلع إلى مكان بعيد، رأت تشي تشي يتأرجح بين الأشجار، كان حتى تلك اللحظة يبحث عن الطبيب والحيوانات الأخرى، فلما أبصرها أتى سريعًا إلى جانبها، وسألها عما حدث للباقين.

أجابته همسًا: «ألقى رجال الملك القبض على الطبيب وجميع الحيوانات، إذ ضللنا الطريق بين الأدغال، وانتهى بنا المطاف مصادفة إلى حديقة الملك الخلفية.»

سألها تشي تشي: «ألم يكن بإمكانك أن ترشديهم؟ أنت على دراية بطرق الأدغال.» وأخذ يوبخها على عدم اعتنائها بهم عندما كان يبحث عن جوز الهند.

أجابت بولينيزيا: «كل هذا كان خطأ الخنزير، لقد ظل يركض مبتعدًا باحثًا عن جذور يأكلها وغير ذلك من الطعام اللذيذ، فاضطررت إلى البحث عنه مرارًا وتكرارًا حتى نسيتُ أين انعطفتُ يمينًا وأين انعطفت يسارًا.»

قال تشي تشي واضعًا إصبعه على شفتيه: «حاذري! انظري؛ الأمير يجول الغابة. يجب أن نحرص على ألا يلحظنا.»

لم يبد الأمير سعيدًا؛ إذ جلس تحت شجرة وهو مطرق الرأس حاملًا كتابًا، فتحه لكن لم يبدأ في قراءته، بل تصفحه وتنهد.

ثم قال بصوت مسموع: «لو أنني أحيا في هذه القصص. أنا أمير، وأحيا بقصر، لكنه ليس كقصور القصص الخيالية. قصرنا ليس فخمًا، ولا أملك الكثير من الأشياء الجميلة. أتمنى أن أبدو كأبطال هذه القصص، أتمنى أن تكون هذه حياتي!»

أغمض الأمير عينيه وضم الكتاب إلى صدره ثم تنهد ثانية.

طرأت لتشي تشي فجأة فكرة، وهمس بها لبولينيزيا، فأومأت برأسها ثم طارت إلى غصن أقرب إلى الأمير.

وقالت بصوت مرتفع حانٍ لطيف: «أيها الأمير الشاب!» — إذ لم ترد أن تخيفه، بل أرادت أن يبدو له صوتها ودودًا — ثم كررت صياحها قائلة: «أيها الأمير الشاب!»

ففتح الأمير عينيه، وتلفت حوله لكنه لم يبصر أحدًا، ولم يفكر في البحث بين الأشجار؛ إذ لم يخطر له أن من يكلمه ببغاء.

ثم قال: «نعم؟ من هناك؟»

قالت بولينيزيا: «لا يهم من أنا. أتيت لأخبرك بأمر شديد الأهمية.»

قال الأمير: «لا أفهمك.» كان بالرغم من كل محاولات بولينيزيا يشعر بالتوتر.

قالت بولينيزيا: «أنا ملكة الجنيات. لقد سمعت أمنيتك.»

فسأل الأمير الذي سمع من قبل قصصًا عن ملكة الجنيات، لكن لم يحسب أنها حقيقية بالفعل: «أحقًّا؟»

أجابته بولينيزيا: «أجل، أستطيع أن أسمع أماني كل من بالأدغال، لكنني لسوء الحظ لا أملك الوقت لمساعدتهم جميعًا، فلا يسعني إلا اختيار المميزين والأماني المميزة.»

كان هذا نبأ مشوقًا، فسأل الأمير وقد اعتدل في جلسته: «وهل أنت هنا لتحققي لي أمنيتي؟»

أجابته بولينيزيا: «أنت تود أن تبدو كأبطال القصص الخيالية وتتصرف مثلهم. أليس كذلك؟»

صاح الأمير فرحًا: «أجل! أجل! أرجوك!» كان قبل وهلة يشعر بالحزن الشديد، أما الآن فسيصبح بطل إحدى القصص الخيالية!

تابعت بولينيزيا كلامها قائلة: «مع أنني ملكة الجنيات، فلن أستطيع مساعدتك وحدي.»

فسأل الأمير: «ما الذي ينبغي لي فعله؟»

فأجابته بولينيزيا: «عليك أن تلتقي بالدكتور دوليتل؛ أذكى رجل في العالم، وهو سيحقق لك أحلامك.»

– «الدكتور دوليتل؟ لكن كيف سأعثر عليه؟ لستُ إلا أميرًا شابًا، أحيا في بقعة نائية.»

قالت بولينيزيا: «لكنك أمير محظوظ. لقد تصادف أن الدكتور دوليتل هنا الآن! وهو يقبع في سجن والدك. إنه على دراية بكل أمور السحر والطب، وهو الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتك.»

فقال الأمير: «لكن ماذا عساي أن أفعل؟»

قالت بولينيزيا: «يجب بالطبع أن تلتقي الطبيب، لكن سرًّا. انتظر مغرب الشمس، ثم تسلل إلى السجن وحدثه. سيعرف كيف يساعدك بالضبط. علي أن أغادر الآن، فيجب أن أعود إلى أرض الجنيات.»

قال الأمير: «أشكرك يا ملكة الجنيات!» ولوح بيديه وابتسم مع أنه لم يدر أين يوجه بصره.

ثم مال برأسه إلى الخلف، وابتسم، وجلس بهدوء تحت الشجرة ينتظر مغرب الشمس.

الفصل الثاني عشر

الطب والسحر

تحركت بولينيزيا بهدوء؛ فتسللت خلسة من الشجرة التي وقفت عليها، وطارت إلى السجن، ثم دخلت الزنزانة من جديد عبر النافذة المرتفعة.

كل الحيوانات كانت تجلس بهدوء على الأرض والقلق باد عليها. كانت العودة إلى السجن مخيفة.

غير أن الدكتور دوليتل كان غافيًا، فتنحنحت بولينيزيا إلى أن استيقظ الطبيب الذي نهض بعدئذ من رقدته، وانتصب في جلسته، ثم فرك عينيه لينفض عنهما النوم.

قالت بولينيزيا: «اسمع، لدي أنا وتشي تشي خطة، الأمير سيأتي لرؤيتك الليلة، وقد أخبرته بأنك تتمتع بقوى سحرية، وهو يريدك أن تجعله بطل قصة خيالية.»

فصاح الدكتور دوليتل: «ماذا؟! وكيف بحق السماء سأفعل هذا؟ لا أعلم شيئًا عن السحر.»

قالت داب داب: «الدكتور دوليتل محق. لا يسع المرء ببساطة أن يحيل أميرًا إلى شخصية في قصة خيالية. هذا مستحيل.»

تابعت بولينيزيا كلامها قائلة: «حسنًا، لقد أقنعت الأمير بأن هذا واقع، وقمت بدوري، والآن حان دوركم؛ عندما يعرض عليكم مكافأة، يجب أن تطلبوا منه إطلاق سراحكم.»

تنهد الدكتور دوليتل قائلًا: «حسنًا، متى سيأتي الأمير؟»

أجابت بولينيزيا: «سيأتي للقائك بعد مغرب الشمس.»

قال الدكتور دوليتل: «إذن علي أن أبدأ العمل»، وأخرج مفكرته من جيبه، وقال: «لا أملك إلا بضع ساعات للتفكير في خطة.»

زار الأمير السجن في تلك الليلة، وأمر الحراس بانتظاره بجوار باب الزنزانة ودخلها. كان يشعر بالتوتر وهو يحدث الدكتور دوليتل العظيم، لكنه حاول أن يبدو رابط الجأش.

قال الأمير: «مساء الخير أيها الطبيب. أخبرتني ملكة الجنيات بأن علي أن أحدثك؛ قالت إن بإمكانك مساعدتي.»

فقال الدكتور دوليتل: «بالطبع، سأبذل كل ما بوسعي.» وبدا حنونًا ولطيفًا كعهده دائمًا. لم يستطع حتى أن يتظاهر بالجفاء.

قال الأمير: «أحب القراءة، وأقرأ طيلة الوقت، القراءة هي أكثر ما أفضل القيام به، لكن ليس بالقصص شخص مثلي. الشخصيات في القصص ترتدي ثيابًا فاخرة، وتملك شعرًا أشقر وعينين زرقاوين، وجميعهم يملكون جيادًا ويحاربون التنانين.»

قال الدكتور دوليتل: «فهمت، تريد أن تصبح كشخصيات القصص.»

فقال الأمير: «أجل، هذا هو بالضبط ما أريد.»

قال الدكتور دوليتل: «هل تعلم أن السعادة تصبح صعبة المنال جدًّا عندما تحاول أن تكون شخصًا مختلفًا.»

قال الأمير: «أعي ما أريد. أريد أن أصبح بطلًا كأبطال القصص الخيالية!»

فقال الدكتور دوليتل: «حسنًا، عليك أن تمهلني بعض الوقت، فعلي أن أخلط بعض الأدوية، إذ سنحتاج إلى شراب خاص.»

ثم التفت إلى حقيبة الأدوية الخاصة به واستخرج منها زجاجات مختلفة، وصب بعضها في وعاء مزج فيه محتوياتها. لم تكن تلك أدوية حقيقية، فقد أمضت بولينيزيا عصر اليوم في جمع الماء له، فلما فرغ من خلط الماء، التفت مجددًا إلى الأمير.

وقال له: «عليك أن تشرب هذا بسرعة. حاول أن تشربه كله على ثلاث جرعات.»

أخذ الأمير الوعاء وفعل بالضبط ما طلبه منه الدكتور دوليتل.

ثم سأله الدكتور دوليتل: «ما الذي تشعر به؟»

تلعثم الأمير قائلًا: «لا أدري. لا أدري حقيقة إن كنت أشعر بشيء أم لا.»

عندئذ أخذ جيب في النباح ووقف أمام الطبيب ونبح في وجهه.

فتراجع الأمير وقال: «ما الذي أصاب كلبك؟»

وأخذت البطة داب داب أيضًا في الصياح، وأخذ البومة تو تو في النعيب في وجه الأمير.

قال الدكتور دوليتل: «عجبًا. الشراب يحدث مفعوله سريعًا.»

قال الأمير: «حقًّا! ألديك مرآة؟»

قال الدكتور دوليتل: «آسف. لا، ليس لدينا مرآة.»

سأل الأمير: «إذن كيف سأعلم بما جرى لي؟ أريد أن أرى هذا بأم عيني.»

قال الطبيب: «انظر إلى جميع الحيوانات. يبدو عليها الانزعاج الشديد، لا بد أن شيئًا لا يصدقه عقل يحدث، والكل يعلم أن الحيوانات لا تكذب.»

نظر الأمير إلى الحيوانات التي بدا عليها بلا شك القلق، ثم نظر مجددًا إلى الطبيب وقال له: «هلا وصفتني إذن؟»

قال الدكتور دوليتل: «بالطبع، لقد صرت أطول بكثير. تبدو كمحاربي التنانين.»

سأل الأمير: «لكن كيف أبدو؟ هل أنا أشقر ذو عينين زرقاوين؟»

أجاب الدكتور دوليتل: «تبدو كأبطال القصص الخيالية.»

رد عليه الأمير قائلًا: «إذن لا بد أنني طويل وأشقر.»

فرد عليه الطبيب: «ثمة أنواع عديدة من الأبطال.»

فرح الأمير فرحًا بالغًا؛ كان موقنًا من أنه صار بالضبط كما تخيل، وقال للطبيب: «كيف عساي أن أشكرك؟»

قال الدكتور دوليتل: «بإمكانك أن تطلق سراحنا. الحبس هكذا يضر بالحيوانات.»

قال الأمير: «بالطبع. سأطلب من الحراس إطلاق سراحكم على الفور.»

تنحنحت البومة تو تو، ووكز جيب الطبيب في ساقه مذكرًا إياه بأمر ما، فقال الطبيب: «آه، سنحتاج أيضًا إلى سفينة، فعلينا أن نعود إلى وطننا في أسرع وقت ممكن.»

قال الأمير: «أستطيع أن أتدبر هذا أيضًا.» واتجه إلى الباب.

قال له الطبيب: «مهلًا، ثمة أمر آخر مهم. عليك أن تلزم القصر ثلاث ساعات على الأقل، فلا يمسك ضوء القمر أو الريح، وإلا أُبطل مفعول السحر.»

فقال الأمير: «آه، شكرًا. أنا سعيد بأنك حذرتني.»

ثم اتجه الأمير إلى باب الزنزانة وفتحه فتحة صغيرة، ووقف خلفه حتى لا يمسه ضوء القمر، فلم يبصره الحراس من خلف الباب.

وصاح: «أيها الحراس، أُعطي الإذن بإطلاق سراح هؤلاء السجناء. عليكم أن تصحبوهم إلى البحر. سيأخذون أحد قواربنا. رجاء احرصوا على مغادرتهم بسلام.»

قال أحد الحراس: «لكن ماذا عن الملك؟ لن يرضى عن مغادرتهم.»

قال الأمير: «سأهتم أنا بأمر والدي. الآن افعلوا ما آمركم به، وخذوهم إلى البحر.»

نفذ الحراس ما طلب منهم، وتبعهم الطبيب والحيوانات إلى البحر، وهناك أشار لهم الحراس إلى سفينة.

وقال أحدهم للدكتور دوليتل: «بإمكانك أن تأخذ هذه السفينة. علينا أن نعود إلى السجن الآن، ولا نملك الوقت لمساعدتكم للصعود على متنها.»

قال الدكتور دوليتل: «لا بأس. نشكركم على إحضارنا إلى هنا.»

وما إن غادر الحراس، حتى تنهدت الحيوانات.

وقال جاب جاب: «تلك كانت خطة جيدة. لقد صدّق الأمير بالفعل أن جيب يشعر بالقلق.»

فسألت تو تو: «كيف اهتديت إلى هذه الخدعة؟ كيف علمت أنه سيصدقك؟»

أجاب جيب: «لقد أراد أن يصدق الخدعة، فأدركت أن كل ما علينا هو أن نتظاهر بالأمر، فيصدقنا.»

قالت بولينيزيا: «ما أدهاك! أتمنى لو أن تلك الفكرة قد خطرت لي أنا.»

فقال الدكتور دوليتل: «البديهة — كما يعلم أي طبيب جيد — تكون أحيانًا أفضل الحلول.»

وقبل أن يصعد الدكتور دوليتل والحيوانات السفينة، اضطروا إلى وداع تشي تشي وبولينيزيا والتمساح الذين قرروا أن يمكثوا في أفريقيا؛ فرغم أنهم أحبوا الحياة مع الدكتور دوليتل، افتقدوا أسرهم التي كان فراقها للمرة الثانية سيكون شديد الصعوبة. تلك كانت لحظة عصيبة للجميع.

صعد الدكتور دوليتل، وجيب، وجاب جاب، وداب داب، والفأر الأبيض، والبوشميبوليو، وتو تو إلى متن السفينة، والتفتوا إلى الشاطئ من خلفهم ولوحوا لأصدقائهم مودعين.

سرى حفيف بين الأشجار، فالتفت الجميع على متن السفينة إلى الأدغال. كان القمر مكتملًا هذه الليلة، فأمكنهم الرؤية بوضوح. لقد حلقت فجأة الآلاف من عصافير الجنة في السماء.

فقال الدكتور دوليتل: «لم أع أننا مكثنا في أفريقيا وقتًا طويلًا إلى هذا الحد. سيكون الصيف قد شارف على القدوم عندما نعود إلى بودلبي. لا بد أن هذه هي عصافير الجنة العائدة إلى هناك.» ثم صاح مناديًا العصافير قائلًا: «كم هو لطيف منكم أن تنتظرونا. نحن الآن متجهون شمالًا، سيساعدنا أن تدلونا على الطريق.»

فأبحرت السفينة ووقف الدكتور دوليتل وحيواناته عند سورها، ولوحوا لأصدقائهم على الشاطئ؛ تشي تشي وبولينيزيا والتمساح الذين صاحوا مودعين لهم إلى أن بحت أصواتهم، ووعدهم الطبيب بأن يمضي إجازاته في أفريقيا مع أصدقائه. ومع ذلك كانت لحظة عصيبة بكوا فيها جميعًا بحرارة.

الفصل الثالث عشر

شرع حمراء وأجنحة زرقاء

اضطر الدكتور دوليتل وأصدقاؤه في طريق عودتهم إلى بودلبي إلى المرور بالساحل البربري، موطن قراصنة البربر.

هؤلاء القراصنة كانوا رجالًا مريعين يتربصون تحطم سفن البحارة على شاطئهم، فإن لم يحدث هذا، استقلوا زوارقهم وطاردوا هذه السفن، واستولوا عليها، وسرقوا كل ما بها، وأخرجوا ركابها منها على زوارق تجديف.

كان هؤلاء القراصنة دومًا راضين عن أنفسهم، يعودون إلى الشاطئ وهم ينشدون الأغاني ويحسبون أنفسهم شديدي الدهاء.

وفي يوم مشمس كان الطبيب وداب داب يتريضان فيه على سطح السفينة جيئة وذهابًا والرياح طيبة، منعشة، والكل سعداء. لاحظت داب داب قبل الجميع سفينة أخرى بعيدًا خلف سفينتهم، ذات شراع أحمر براق.

قالت: «لا تعجبني هيئة هذا الشراع، لا أظنه ودودًا. أخشى أن نواجه المزيد من المشكلات.»

كان جيب ينام إلى جانبها هي والطبيب على ظهر المركب، وقد أخذ يهر ويتحدث أثناء نومه. تمتم قائلًا: «أشم رائحة لحم مدخن يُطهى. آه، لحم مدخن مع مرق بني.»

قال الدكتور دوليتل: «عجبًا! ما الذي دها هذا الكلب؟ هل يشم أثناء نومه؟ يشم ويتحدث؟»

قالت داب داب: «يبدو هذا. كل الكلاب تستطيع أن تشم أثناء نومها.»

فقال الدكتور دوليتل: «لكن لا بد أنه يتوهم هذا، فليس هناك لحم مدخن يُطهى على متن هذه السفينة.»

فقالت داب داب: «لا بد أن تلك الرائحة قادمة من تلك السفينة الأخرى.»

فقال الدكتور دوليتل: «لكن هذه السفينة تبعد عنا عشرة أميال على الأقل. من المؤكد أنه لا يستطيع أن يشم من مسافة بعيدة كهذه!»

بدأ جيب يزمجر ثانية، وانثنى طرفا شفتيه، وأخذ يتحدث أكثر مع أنه ظل نائمًا، وتمتم قائلًا: «أشم رجالًا كريهين. أسوأ رجال شممتهم على الإطلاق. أشم خطرًا. ووف! علي أن أوقفهم. ووف.» وأخذ في النباح بصوت عال إلى أن أيقظ نفسه.

قالت داب داب: «انظروا! هذه السفينة اقتربت كثيرًا! لا بد أنها تسير بسرعة كبيرة. إنها متجهة نحونا. تُرى من على متنها؟»

فقال جيب: «كنت أحلم لتوي براكبيها، وأمكنني شم رائحتهم. إنهم رجال أشرار جدًّا. أعتقد أنهم قراصنة الساحل البربري.»

قال الدكتور دوليتل: «إذن علينا بالإسراع؛ علينا أن نرفع المزيد من الشرع لتدفعها الرياح، هذا سيساعد على إسراع سيرنا.»

فأسرع جيب وقصد الطابق السفلي للسفينة ليحضر المزيد من الشرع، وجذب كل ما يستطيع حمله منها، لكن حتى مع كل هذه الشرع، ظلت سفينة القراصنة أسرع، وظلت تقترب من سفينة الدكتور دوليتل.

تذمر جاب جاب قائلًا: «لقد وهبنا الأمير سفينة رديئة. لا شك أنها كانت الأبطأ في أسطوله. انظروا! لقد دنوا منا كثيرًا.»

قال جيب: «أرى ستة رجال. ماذا نحن فاعلون؟»

طلب الطبيب من داب داب أن تطير وتخبر عصافير الجنة بأن القراصنة يتعقبونهم، وأضاف: «قولي لهم إن سفينة القراصنة سريعة جدًّا.»

وعندما سمعت عصافير الجنة هذا، حطت كلها على متن السفينة، وطلبت من الدكتور دوليتل أن يفكك بعض الحبال الطويلة؛ إذ احتاجت إلى أقصى عدد ممكن من الحبال الرفيعة، ثم ربطت طرف هذه الحبال بمقدمة السفينة وأمسكت بالطرف الآخر، وطارت مجددًا إلى السماء جاذبة خلفها السفينة.

لعلك تعلم أن عصافير الجنة صغيرة الحجم وليست قوية، لكنها تصبح قوية تمامًا عندما يجتمع عدد كبير منها. اتصلت آلاف الحبال بسفينة الدكتور دوليتل، وجذب كل حبل اثنان من عصافير الجنة.

وفي غضون دقيقة أو اثنتين فقط، وجد الطبيب سفينته تتحرك بسرعة كبيرة، حتى إنه تشبث بقبعته بكلتا يديه، وشعر وكأنه يطير.

وأخذت كل الحيوانات على متن السفينة تضحك وترقص والتفتت خلفها إلى سفينة القراصنة فوجدتها تبدو أصغر شيئًا فشيئًا، وهم يبتعدون عنها كثيرًا.

الفصل الرابع عشر

تحذير الفأر

جذب سفينة عبر البحر عمل شاق، وعليه بدأت عصافير الجنة بعد ساعة أو اثنتين تشعر بالتعب، وكلت أجنحتها، ولهثت، وأشارت إلى الدكتور دوليتل بأنها بحاجة إلى الراحة، وأخبرته بأنها ستجذب السفينة إلى جزيرة قريبة حيث سيخبئونها على الشاطئ ويستريحون.

وعندما بلغ الطبيب والحيوانات الشاطئ بمأمن، أبلغ الطبيب الحيوانات أن بإمكانها أن تترجل من السفينة، إذ أدرك أنها تريد أن تمدد ساقيها، وأعلمها بأنه سيذهب ليبحث عن بعض الماء.

وأثناء مغادرة السفينة، لاحظ الدكتور دوليتل مئات الجرذان تصعد إلى ظهر السفينة من الطابق السفلي لها. كانت هذه الجرذان بدورها تاركة السفينة.

زحف من بين الجرذان جرذ أسود كبير متجهًا إلى الدكتور دوليتل، وسعل عدة مرات ثم توقف برهة لينظف شاربه، ثم تحدث.

قال بخجل: «معذرة أيها الطبيب، لكن عليك أن تعلم أن كل السفن على متنها جرذان.»

فقال الدكتور دوليتل: «أجل، سمعت هذا من قبل.»

– «لا شك أيضًا أنك قد سمعت أن الجرذان تغادر السفن الموشكة على الغرق.»

– «سمعت بهذا أيضًا.»

فقال الفأر: «أردت فقط أن أعلمك بأننا سنغادر هذه السفينة. لكن قبل هذا وددت أن أخبرك أن هذه السفينة ليست آمنة؛ فجانباها ليسا قويين، وألواحها فسدت. لن تصمد هذه السفينة يومًا واحدًا آخر.»

فسأل الطبيب: «لكن كيف أدركت هذا؟»